

الوافي في الوفيات

وكتب في محضر قيم في حمام الصوفية جوراه خانقاه سعيد السعداء اسمه يوسف : يقول
الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد الظهر أن أبا الحجاج يوسف ما برح الصلاح متمماً وله
جودة صناعةٍ استحق بها أن يدعى قيماً . كم له عند جسمٍ من مَنٍّ جسيم وكم أقبل
مستعملوه " تعرف في وجوههم نضرة النعيم " وكم تجرد مع شيخ صالح في خلوة وكم قال ولي
الله يا بشراي لأنه يوسف حين ادلى في حوض دلوه . كم خدم من العلماء والصلحاء إنساناً وكم
ادخر بركتهم لدنيا وأخرى فحصل من كل منهم شفيعين مؤثرين وعرياناً . كم حرمة خدمةٍ له
عند أكابر الناس وكم له يدٌ عند جسدٍ ومنه على رأس كم شكرته أبشار البشر . وكم حك رجل
رجل رجلٍ صالح فتحقق هناك أن السعادة لتلحظ الحجر . قد ميز بخدمة الفضلاء والزهاد أهله
وقبيله شكر على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة . كم ختم تغسيل رجل بإعطائه براءة
يستعملها ويخرج من حمامٍ حار فاستعملها وخرج فكانت به براءة وعتقاً بالنار . كم أوضح
فرقاً وغسل درناً مع مشيبٍ فكان الذي أنقى فما أبقي . تتمتع الأجساد بتطيبه لحمامه "
بظلٍ ممدود وماء مسكوب " وتكاد كثرة ما يخرج من المياه أن تكون كالرمح على أنبوباً
على أنبوب . كم له بينة حر على تكثير ماء يزول به الاشتباه وكم تجعدت فباتت كالسطور في
حوضٍ فقل : كتاب الطهارة باب المياه . كم رأسٍ أنشدت موساه حين أخرجت من تلاحق الأنبات
خضراً : من الطويل .

ولو أن لي في كل منبت شعرةٍ ... لساناً يبث الشكر كنت مقصراً .
ومن إنشائه أيضاً صورة مقامةٍ وهو مما كتب به إلى محيي الدين ابن القرناس الحموي :
حكى مسافر بن سيار قال لما ألفت النوى عن الإخوان وتساوت عندي الرحلة إلى البين تساوي
الرحلة إلى الاوطان وتمادت الغربة تحبوني أهوالها فتزلزل بي الأرض زلزالها وتخرج مني وسن
أمثالي ائفالها ولا إنسان يرى أراجي نفسي وآمالها فيقول ما لها ولا يشاهد ما هو أوحى لها
الدجة بالغذوة والإعتماد بالإسفار وغرني مع إيماني قلبي في البلاد وتطلبي لتقويم عيشي
المناد وتحنني إلى الحصول بإرم ذات العماد " التي لم يخلق مثلها في البلاد " فلبثت فيها
أياماً وشهوراً وودت لو كانت سنسن ودهوراً وما بلد الإنسان إلا الموافق . فينا أنا منها
لو ثلةٍ من الولين ومن الوافدين عليها في قليل من الآخرين وبين سادات من كتابها "
وأصحاب اليمن من أصحاب اليمن " ونحن في نعمةٍ بالإيواء من ظلها إلى ربوةٍ ذات قرارٍ
ومعين وإذا بداعي النفير قد أعلن مناديه وارتجل ما ارتجز حاديه فقلت : المسير إلى أين
؟ قالوا : إلى الأين ! .

والسفر متى ؟ فليل : ألى ! .

من الطويل .

وماد دار فيما بيننا أين بيننا ... يكون ولكن الزمان غبون